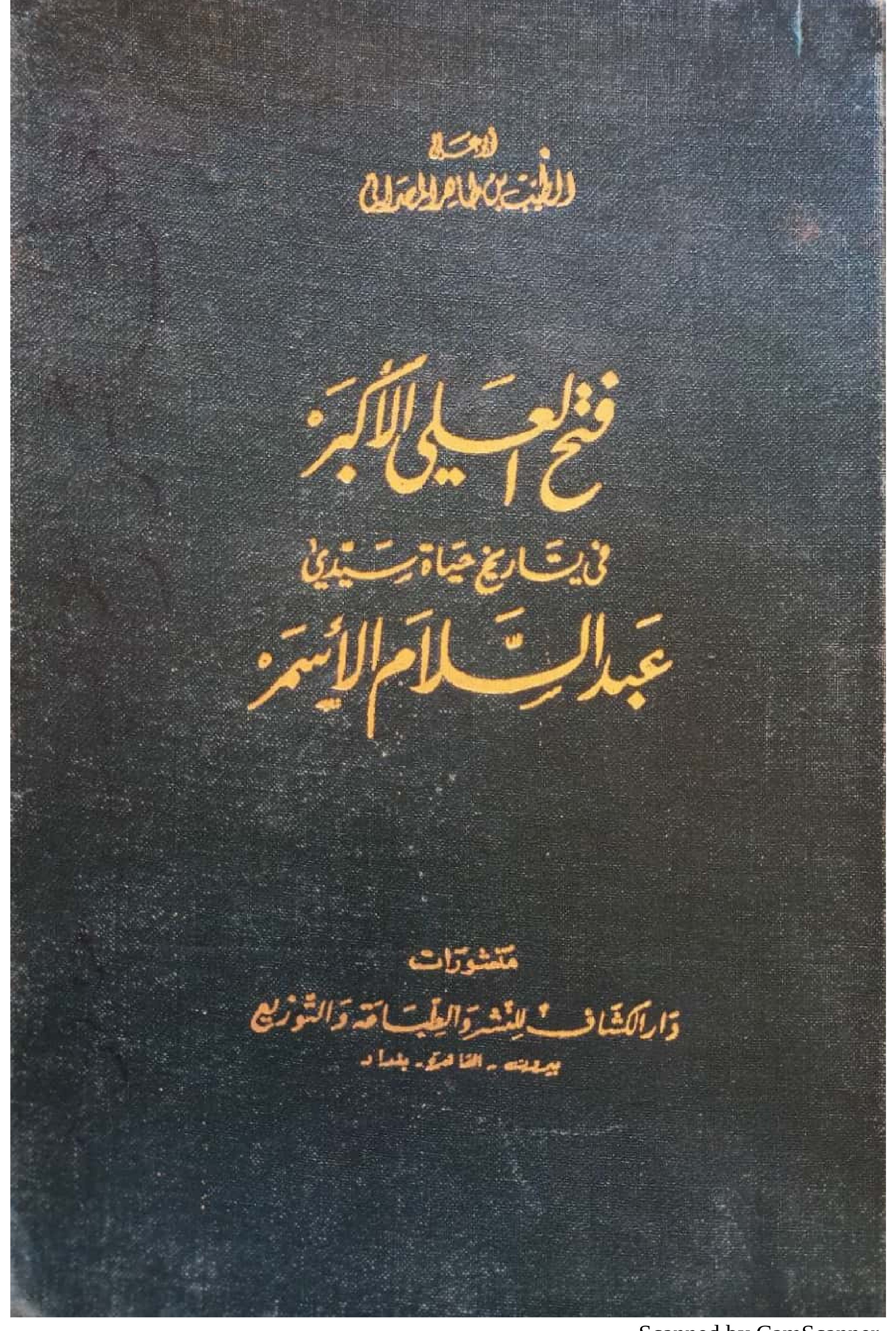

أعده
الطيب بن طاهر المصراتي
فتح العلي الأكبر
في تاريخ حياة سيدي
عبد السلام الأسمر
منشورات
دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - القاهرة - بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلاّ على الظالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . اما بعد ... فهذا هو الكتاب الموسوم بـ « فتح العليّ الأكبر ، في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر » على النحو المبين في المقدمة .

المبحث الأوّل

في المرحلة الأولى من حياته

وتبتدئ من مولده وتنتهي بحالة جذبه

الفصل الأول : في مولده .

قال الشيخ محمد بن محمد بن عمر مخلوف ، في مختصر البرموني ، نقلاً عن الأصل ، ما نصه : « اعلم أن مولانا عبد السلام ولد يوم

الاثنين ، ليـلة اثني عشر من ربيـع الأنور ، سنة ثمانين وثماني مائة بيزليتن . ثم لما مات والد سيدي عبد السلام وتركه ابن سنتين وشهرين يتيماً في حجر أمه تولى أمره والقيام بشئونه في الصغر عمه أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري . وكان يحبه وينصحه ويألف اليه ، ويلبسـه الثياب الثمينة . ووضعه في المكتب ليقرأ القرآن إلى أن حفظه وهو ابن سبع سنين ، وصار من الماهرين فيه ويقرؤه على أحسن هيأة بضبط وتجويد ، وكان مع قوة حفظه لا يقرؤه إلا في المصحف » .

الفصل الثاني : في نسبه من أبيه وامه .

قال صاحب المصدر السابق في نسبه من جهة أبيه ما نصه ، نقلاً عن أصله : « هو الشيخ العظيم الكامل القدوة ، العمدة العالم الصالح العامل ، شيخ زمانه ووحيد عصره وأوانه ، المربي الواصـل القطب الغوث المكاشف ذو المقامات العلية والاحوال السنية والافعال المرضية ، شيخ الطريقة وامام أهل الحقيقة ، مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميـد ، بن عمران الشهير بالخليفـة بن محي بن سليمان بن عمران بن أحمد بن خليفة ، الملقب بفيتور ، بن الشيخ الولي الصالح العابد الزاهد السيد الشريف الحاج عبد الله الشهير بنبيل المقبور بمكة ، بن عبد العزيز بن عبد القادر بن عبد الرحيم بن عبد الله بـن ادريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن المثنّى ، بن الحسن السبط بن سيدتنا فاطمة ، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . نقل هذا النسب الشيخ بدر الدين بن نجم الدين في تأليف له في أشراف المغرب » .

ثم قال الشيخ مخلوف ما نصه : « قلت : وقد أطلعني أحد أحفاد مولانا عبد السلام على رسم شجرة بها بيـان نسب الشيخ ، رضي الله

عنه ، وبها ختم كثير من علماء طرابلس وغيرها ، وأتى به على الوجه المذكور ، غير أنه لما بلغ الى سليمان وتعرض لأبنائه السبعة قال سليمان ابن سالم بن خليفة بن نبيل بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد بن عبد الله بن ادريس الأصغر بن ادريس الأكبر الى آخره — تأمل » .

قلت : ويشير الشيخ مخلوف بهذه العبارة إلى وجود خلاف بين الكلام السابق عن صاحب الأصل وبين ما في هذه الشجرة ؛ والأمر سهل ، لأن مثل ذلك لا يستبعد في التاريخ . وقال صهرنا وصديقنا الشيخ محمد بن نصر بعيو ، في كتاب ألّفه في حوادث هذا القرن العشرين — عندما تكلم على المعهد الأسمري وانجر به الحديث الى تاريخ ونسب الشيخ سيدي عبد السلام ، معقباً على ما ذكره ناظر المعهد الأسمري السيد سالم بن حمودة ، في رسالة صغيرة ألفها هذا في تاريخ سيدي عبد السلام — قال الشيخ بن نصر ما نصه : « وقولي : ومختصر تأليفي ... إلى آخره ، إشارة إلى ما ألفه ناظر وقف الشيخ عبد السلام الأسمر وسماه « مختصر تاريخ الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر » قال : في نسبه إلى سليمان ما هو صحيح ومنه واقع النقصان ، حيث قال : سليمان بن عمران وهنا نقص اثنان ، إذ هو سليمان بن سالم بن خليفة ابن عمران بن أحمد بن خليفة فيتور ؛ ويحسن هنا نظمنا فيهم المشروح الآتي :

أمـــا سليمان فجد الجملة	والشيخي والفيتوري ينتسب له
فنحن والفيتوري أصل واحد	لكـــنما الأسمر فرع زاهـــد
وسالم خليفـة مشهور	عمران احمـــد كذا فيتور

وفيتور ابن نبيل قال : هو ابن عبد العزيز ، كذلك هنـــا نقص ثلاثة إذ هو نبيل بن عمران بن احمد بن عبد الله بن عبد العزيز كما ابنته في نظم مشروع كتاب النصر بقولي : —

كذلك الولي عبد الله نبيل الشيخ كبير الجاه
فهو دفين مكة المشرفة سبحان من فضله وشرفه
رحلته من فاس الى الشرق مشهورة فافهم اخي للحق
عمران احمد وعبد الله ثلاثة من أولياء الله
وعابد العزيز عبد القادر وعابد الرحيم بحر زاخر
واحمد مولى التقى والعلم . وعابد الله رئيس الحكم

فكذلك هنا نقص أحمد بن عبد الرحيم وبين عبد الله ابن ادريس فينبغي زيادة ستة رجال في نسب الشيخ لما أن المثبت مقدم على المنفيّ ومَنْ حفظ حجة على من لم يحفظ ، ولأن المائة تفني ثلاثة رجال في نسب . فنحن الآن بيننا وبين علي بن ابي طالب ثلاثة عشر قرناً وأربعون جدّاً ، كما حققناه مراراً . ولعل الناظر تبع في اختصار النسب مختصر البرموني الى آخره ...

ونحن نقول ان مثل هذا الاختلاف يقع كثيراً ، ولا يضر ، ما دام أصل النسب صحيحاً ومسلماً به ومقبولاً من أولي العلم والمعرفة وما عداه فأمره هين وبسيط .

وأما نسبه من جهة أمه فقد قال صاحب مختصر البرموني ، نقلاً عن الأصل ما نصه : « أقول : قال الاصل : نسبه من جهة أمه ، رضي الله عنه ، هو عبد السلام ابن السيدة سليمة ، الشهيرة بعيادة ، ابنة الشيخ العالم العلامة الولي الصالح المكاشف سيدي عبد الرحمن الدرعي ، بن عبد الواحد بن عبد القادر ابن عبد العزيز بن علي بن سعد بن محمد بن ابي عبد الله بن الشيخ الكبير الشهير ، الولي الصالح المربي ، سيدي عبد السلام بن مشيش ، نفعنا الله به . فهو شريف الطرفين كما رأيته في كتاب النسب المجمع عليه ، وكما رأيته في سلسلة معتمدة أتى بها سيدي عليّ بن سيدي عبد الرحمن

الدرعي ، خال الشيخ ، وذلك في أيام زيارتنا لدرعة وأوليائها ؛ وكانت تلك السلسلة مبتدأة من أبي سيدي عبد الرحمن الى سيدي عبد السلام ابن مشيش ؛ وكما رأيته في عقود كثيرة عند المغاربة والمشارقة ... الى أن يقول في شأن سيدي عبد السلام الأسمر وأمه : واشتهرت أمه بعبادة لكونها ولدت يوم عيد الفطر يذكر انها لما تزايدت ببلاد درعة وكبرت وعرفت ما يصلح بها من فرض العين وغيره ، نودي في سر والدها أن لا يزوجها لأحد من الناس إلا لسيدي سليم بأرض طرابلس . فكان الناس يرغبون في خطبتها عند أبيها ويبذلون له فيها المهر الكثير فيقول : ما لي وتزويجها لكم ولو بوزنها ياقوتاً ، وسيظهر زوجها إن شاء الله من طرابلس ، شريف النسب من آل محمد صلى الله عليه وسلم . فلما أن أراد الله الجمع بينها وبين سيدي سليم ، حملها أبوها لأرض طرابلس ، وعندما وصل عوسجه تلقاه سيدي سليم ومعه القاضي والشهود فزوجها له والدها بعقد وصداق ، ورحل بها سيدي سليم للزاوية الغربية وبنى بها هناك ، ولم يتزايد له ذرية سوى سيدي عبد السلام . وكانت فاضلة جليلة حاذقة كيسة ، تصوم من السنة الايام الكثيرة وتتلو جزءاً من القرآن . لم أر في زماننا مثلها . عاشت مائة وعشر سنين ، ودفنت بالحجرة المقبور بها سيدي عمران جد الشيخ . ولما توفيت نادى منادٍ : هلموا إلى الصلاة على المرأة الصالحة الفاضلة ، السيدة الشريفة الجليلة ، كثيرة الإحسان عابدة الرحمن ، الدرعية ، رحمها الله » . انتهى كلام البرموني .

قلت : وعلى ذكر سيدي سليم ، والد الشيخ ، يجدر بنا أن نسوق نبذة عن حياته وبعض كراماته ومناقبه ، فنقول نقلاً عن مختصر البرموني ما نصه : « كان والده سيدي سليم ، رحمه الله ، من رجال الله الصالحين ، صاحب كرامات وإشارات وخرق عادات ؛ وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يتكلم على معاني الكتاب والسنة كلاماً بليغاً

تحير فيه العلماء ؛ وكان يرد الغلط على القارىء إذا سمعه بدّل أو غيّر أو زاد أو نقص أو انتقل من سورة إلى سورة ؛ وكان يجلس بالزوايا التي يتلى فيها القرآن العظيم ، وينصت لقراءته من أفواه الطلبة ، فإذا غلط القارىء أو بدّل أو غيّر يقول له : أسكت يا فلان ، فإن قراءتك على غير الصواب ؛ فإذا قيل له : كيف تعلم ذلك ؟ يقول : إن القارىء إذا قرأ بإزائي أصير أنظر نوراً متصلاً خارجاً من فيه إلى عنان السماء ، فإذا غلط القارىء أو بدّل أو غيّر انقطع ذلك النور الخارج من فيه » . ثم قال صاحب المختصر : « قلت : ولا عجب في ذلك ، فقد كان سيدي عبد العزيز الدباغ أمياً ، ومع ذلك يفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث الغير القدسي ، ويفرّق بين الحديث الصحيح والموضوع ، وله نفس عالٍ في تفسير القرآن والأحاديث ؛ أنظر الإبريز تعلم أن ذلك محض فضلٍ من الله ، والله ذو الفضل العظيم » .

وفي الأصل أن لسيدي سليم كرامات كثيرة ، منها اطلاعه على زوجه أم الشيخ قبل ولادتها ، وذلك أنه إذا قيل له تزوج ، يقول : حتى تزداد أم عبد السلام ، وإذ ذاك لم يبن أبوها بأمها . ومنها إخباره بابنه عبد السلام وما يتزايد له من الذرية قبل ازدياد أمه . ومنها : كان يشفع عند الحكام فشفع مرة عند الحاكم في إنسان فأبى ، وقال له : إن كنت شيخاً فانفخني . فقال : باسم الله ، ونفخ في وجهه فانتفخ وتطرطرت يداه ورجلاه ، حتى صار يستعطفه ويستغفر الله ، فمسح بيده على وجهه فانفش ، وبعد ذلك صار مريداً له محباً فيه إلى أن توفاه الله . ومنها : كان يدعو الطير من السماء فينزل اليه ، ويدعو السمك في البحر فيخرج له ، وكان قائم الليل صائم الدهر ، رحمه الله ونفعنا به .

الفصل الثالث : في ابتداء امره ونشاته .

قال في مختصر البرموني نقلاً عن الأصل وصاحب « فتح العليم » ما نصه : لما بلغ ، رضي الله عنه ، مبلغ أهل العلم والتأمين في ذلك قال له عمه : سر معي إلى شيخ من شيوخ التربية لتنتسب اليه وتأخذ عنه . فقال : يا عمي ، كيف نحتاج إلى شيخ والله عزّ وجل كشف لي الحجاب حتى مشارق الأرض ومغاربها ، وما فوق الفوق وما تحت التحت ... فقال له : يا عبد السلام ؛ إن لم تنسب إلى شيخ فلا يتم لك ذلك ، لأن شيخ التربية واجب وجوباً متأكداً ؛ فإن المريد ، وإن قرب من المنازل ورأى ما لا يمكن وصفه ، فلا يأمن رعونة نفسه وغواية شيطانه إلا بمعرفة شيخ غالباً ، فلا بد لك من الانتساب إلى من هو عارف بالله ، فارغ من تأديب نفسه وعلى الله الكمال ؛ لأن الإنسان إذا لم ينتسب إلى شيخ قالوا : كالشجرة النابتة بنفسها ، لا يتم إنتاجها . ولا زال عمه يحثه على ذلك إلى أن سار معه إلى من أراد الله ظهوره على يده ، وهو الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي . فلما وصلوا إليه فرح فيهما فرحاً عظيماً ، وقال : مرحباً بأبي العباس وابن أخيه عبد السلام ابن سليم ــ وذكر نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ . ثم أجلسه بين يدي الشيخ سيدي عبد الواحد واستودعه وانصرف ، وبقي سيدي عبد السلام عنده سبع سنين مجدّاً في خدمته ليلاً ونهاراً ، يميناً وشمالاً ، لا يتفرغ إلا ساعة الدرس في علم التصوف ، فإن الشيخ يريحه في تلك الساعة من كل خدمة . وقد أظهر في خدمته واتباع مأموراته من غير تردد ولا تأويل عجائب لا يقدر عليها إلا من سبقت له العناية الربانية . ووقعت له معه حكايات كثيرة في أمر الخدمة ، منها قوله له في ليلة شاتية ذات برد ومطر كثير : اجلس تحت هذا الميزاب إلى

أن نأتيك . فامتثل وجلس تحتــه من بعد صلاة العشاء الأخيرة الى الصبح والميزاب يصب على رأسه الماء ، ولم يتحول خوفاً من مخالفة شيخه إلى أن أتاه الشيخ . ومنها انه بعثه من مسلاتة إلى ساحـل آل حامـد ليأتي بحاجة من ابنة الشيخ السيدة عائشة في قصرهم المعروف بالساحل . وقال له الشيخ عنـد بعثه محرضاً لــه على الاستعجال : إياك اياك أن تقعد ، فأسرع . ولما وصل عزمت عليه ابنة الشيخ بعد أن حلفت له أن لا يمشي حتى تصنع له طعاماً ويأكله . فخشي من تحنيثها وخاف من مخالفة ظاهر نهي الشيخ له عن القعود ، فأخذ ولداً لها صغيراً وجعل يلود به في نواحي الدار واقفاً لئلا يبكي فيشغلها . ولما صنعت له الطعام وضع له على مرتفع وأكله واقفاً ورجع ، ولم يقع منه القعود ذهاباً واياباً .

ومنها أنه بعثه في ليلة شاتية كثيرة البرق والمطر ليأتي له بالماء من صهريج بعيد عن البلد بنحو الأربعة أميال ؛ فذهب له ومــلأ القربـــة وجعلها على ظهره ؛ ولما قارب البلد — وهي زعفران — انفلت وكاؤها وأريق ما فيها فرجع ثانياً . ولم يزل كذلك من المغرب الى الصبح ولم يضجر ولم يتأوه . ولما أصبح الصبح ملأها وجعلها على ظهره بـــدون وكاء ، فسلمت باذن الله تعالى . فلما دخل بها على الشيخ قال له : يـا عبد السلام ... ورثت مقامي ؛ اذهب لتنتفع بك الناس ؛ الشيخ مـا يخدم شيخاً . فامتنع من ذلك وطلب المكث في الخدمة ، فأبى الشيخ من تخديمه فمشى من عنده كئيباً حزيناً . ثم جعل يطوف على الأولياء ويطلب منهم الاستخدام ، فإذا استخدمه الواحد منهم مدة يسيرة اطلع على علو مقامه فيمتنع عن تخديمه . الى أن بلغ ثمانين شيخاً من مشايخ التربية ، وكلهم امتنعوا منه لاطلاعهم على علو مقامه : كسيدي عبـــد الله العبـــادي ، وسيدي عبد النبي ابن عبـــد المولى ، وسيدي علي العوسجي ، وسيدي محمد بن عبد الرحمن الحطاب ، الى الثمانـــين وهم مذكورون في غير هذا ا هـ » — مختصر البرموني .

وقال الشيخ سالم السنهوري في كتابه الذي ألفه في تاريخ حياة الشيخ مولانا عبد السلام وكراماته ومناقبه ، والرد على من أنكر على طريقته وأذكاره ، والذي سماه (النور النائر) ، قال في معرض الكلام على الشيخ وما يتمتع به من مكانة روحية وعلمية بعد كلام ما نصه : « قلت : الشروط المذكورة السنية الشرعية قد اجتمعت في شيخنا الذي نحن بصدده ، القطب الكامل والغيث الوابل سيدي أبي عمران عبد السلام ابن سليم ، رضي الله عنه . فحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين – قلت ولعل ذلك تحريف من الناسخ ، والصواب في سبع سنين كما هو موجود في البرموني ومختصره وفتح العليم – ثم قال : والرسالة ومختصر خليل والمدونة والحكم العطائية والتنوير ، وتفنن في كل علم » .

حتى قال رحمه الله : أظهرني ربي ، سبحانه عز وجل ، على ما في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وما في ظاهرها وباطنها ، وأحيا الله الموتى على يدي ؛ إلى غير ذلك مما لا يحصى ولا يقيد . وقال صاحب فتح العليم ما نصه : « وأما ابتداء أمره في السلوك فيذكر أنه ربي يتيماً وكان عمه شاعراً لكن لا يمدح إلا الأولياء والصالحين ، يقصدهم ويأخذ جوائزهم ، فكان الشيخ يمشي مع عمه حتى أتوا الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي ، رحمه الله ونفعنا به فطلب من عمه أن يترك ولده ، ولعله والله أعلم لاطلاعه على ما يصير اليه ، وانه وارث مقامه ، فتركه ، وهو فيما سمعته دون المراهقة . فكان ذلك ابتداء سلوكه .

والى أخذه في سلوك الطريق صغيراً يشير في بعض مقطعاته :

بسم الله بدأت بسم الجواد سبحانه العالي القدير
أعطاني الله فزت ما بين أندادي توبه زينه وأنا صغير

الخ .....

قلت : وإذا تأملت ما سبق عن صاحب (مختصر البرموني) وما نقله صاحب (فتح العليم) يبدو لك شيء من الخلاف بينهما حيث يستفاد من الأول ان عم الشيخ هو الذي طلب من ابن أخيه وألح عليه في الذهاب الى الشيخ سيدي عبد الواحد الدوكالي ، ويفيد الثاني أن الشيخ الدوكالي هو الذي طلب من العم بقاء ابن أخيه . ولعل ذلك لا خلاف فيه ، وأن عم الشيخ ألح عليه أولاً وبعد الاجتماع بالشيخ الدوكالي طلب من عمه ابقاءه حتى التقت الفكرتان واجتمع الرأيان ، وكل ذلك بتوجيه الهي بدون شك ولا ارتياب .

وقال صاحب مختصر البرموني مانصه « قال سيدي عبدالرحمن المكي في صغيره : قرأ على شيخه الدوكالي المختصر والرسالة والحكم والتوحيد والمعقول وغير ذلك من العلوم ، وصار فقيهاً متفنناً محافظاً على السنة ... الى آخره »

المبحث الثاني

في المرحلة الثانية من حياته

وتبتدئ من حالة جذبه إلى حالة استقراره بزاويته المعروفة

الفصل الاول : في ابتداء جذبه وشطحته .

قال صاحب مختصر البرموني ، نقلاً عن الشيخ المكي في صغيره ، ما نصه :

« وكان لا يحب البنادير ولا أهلها ولا المجاذيب ولا قربهم ؛ وكان يغسل الحصر التي يجتمع عليها الفقراء ويشدد في الإنكار عليهم ، وشيخه ينهاه عن ذلك المرة بعد المرة . ثم ذات يوم قصد زيارة قبور أجداده أولاد سليمان السبعة ، فلما وصل وجد بإزاء قبورهم طائفة من المغاربة يضربون الدفوف وينشدون أشعاراً منسوبة للشيخ ممشاد الدينوري . قال أخونا في الله سيدي احمد الشريف المسلاتي : لما سمعهم سيدي عبد السلام خرّ مغشياً عليه ، وأخذه حال البكاء والجذب ، وبقي يشطح حتى أصابه حال عظيم . وأمر الطائفة أن يضربوا له الدفوف إلى أن بلغ خبره الشيخ الدوكالي ، فتغير من ذلك ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء . ثم أمر العبيد

بالاتيان به ، فأتوا به مغلـلا ووضعه في السجن وجعل عليه حراساً . وجاءت له جماعة من الأشراف والقبائل وطلبوا منه إطلاقه من السجن وإعطاءه الإذن له في ضرب البندير فامتنع ، وقال : من أعان إنساناً على معصية كان شريكاً له فيها ، لأن ضرب البنـدير معصيـة وليس بقربى . إلى أن قال لهم : إن الله لا يعبد بالشطح ولا بالردح ، ولا بالدفوف ولا بالكفوف .

• ثم أتاه شيخ بالاذن مـــن أولياء الله وهو في السجن على صورة طير يطير في الهواء ، وصفق بجناحيه وغرّد ثلاثاً ؛ فلمـــا سمع الشيخ وهو بالسجن ، خرق السجن وطار ونزل على شجرة ، فـــنزل عليه بندير وفيه خمسة أوتار وخمسة جلاجل من عند أهل الله ، فهبط به وهو في يده اليمنى . فتعجب الناس من ذلك ، وشاع الخــبر حتى وصل شيخه الدوكالي فبالغ في الإنكار عليه حتى قال : لا يسوغ ضرب البندير مطلقاً : نزل من السماء أو خرج من الأرض . فتغير سيدي عبد السلام وبكى بكاء شديداً ؛ وجعل الدف على ظهره ، وقصـد الشيخ الاستاذ سيدي فتح الله أبـــا رأس القيرواني . [وهو شيـــخ الشيخ الدوكالي ، كما سيأتي – الناشر .] فلما وصل إليه جلس بـــين يديه وذكر له ما وقع له مع شيخه الدوكالي ؛ فتغير سيدي فتح الله وبكى ، ثم ركب فرسه وسيدي عبد السلام يمشي خلفه راجـــلا حافياً في يوم حر ، إلى أن وصلا إلى الشيخ الدوكالي فوجداه يتوضأ للظهر . فصليا معه الظهر جماعة ، ثم قال سيدي فتح الله : ما بالك يا عبد الواحد مع تلميذك عبد السلام ؟ فقال له : عبد السلام ابتدع وركبه الجنون ، ورفض مذهب اهل السنة وطريقة الكتاب والسنة ؛ وعبـــد السلام خالف واتبع طريق الزفافين أهل الدفوف والكفوف والشيء الذي لا يعني . فسكت سيدي فتح الله ساعة ثم قـــال : يا عبد الواحد ،

معذور من ذاق الشراب ولذائذه ، ومعذور من لا ذاقـــه . وانت يا عبد السلام ، أرنا دفك واضربه لنسمعه . فأخرجه مـــن تحت ازاره وأنشد يقول :

نبكي من الغبن — يا سلطان الحضره
داروني في السجن — وكبلوني في قعره
راه ما يهز القصر — الا ولي القـــدره
والشوق مع الحب — هزاز للفقـــره

« الى أن يقول الشيخ المكي في صغيره : واذا بالشيخين قد أخذهما الجذب والارتعاش وقاما يرقصان . فأما الشيخ الدوكالي فقد أغمي عليه وسقط على الأرض يتقلب يميناً وشمالاً نحو الساعتين . وأما أبو رأس فقد بقي قائماً يميد كالسكران ، ثم شخص نحو الثلاث ساعات ثم أفاق وقال : يا عبد السلام ، قد صرح لـــك أهل السموات والأرض في ضرب البندير ، أنت ومن تبعك ؛ ولا قلت لك هذا الا بإذن مـــن الله ورسوله وجميع أنبيائه وأوليائه والملائكة والجن والطير والوحوش والحور العين ، وكل ناطق وجامد . فمن ذلك الوقت سلم لـــه الشيخ الدوكالي واعترف بفضله وصار لا يقدر أن يصبر على فراقه .

« وكان رضي الله عنه إذا أنشد وضرب ، يهتز كل من كان حوله حتى الجوامد » . انتهى من « صغيره » باختصار ، وسيأتي الكلام على سبب استعماله الدف في الباب الذي تعرضنا فيه لبلوغه درجة الغواثة وفي الأصل أن سجنه وتغليله غير ثابت . قلت : والأرجح وقوع ذلك ؛ لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ ؛ ثم وقفت على وصية الشيخ الكبرى فوجدت فيها ما يدل على وقوع ذلك ونصه : « ... إخواني ، لا يجوز لأحد منكم أن يتعمد سماع الباطل كالملاهي المحرمة ، فمنهـــا الزكرة ونحوها ، ولا يجوز الرقص عليها من غير تواجد ولا حالة ،

إلا البندير لأن أمره خفيف . وقد أنكره شيخنا السدوكالي في أول بدايتي وزجرني على شأنه وضربني ، وألقاني في السجن وأخرجني الإله سبحانه من السجن ولا سلّمه لي الشيخ المذكور إلا بعد هول ومشقة ، وهو أمر مختلف فيه ، ولو لم يسلمه لي لم أضربه ولم أقربه ولو أموت بالهيام ، وما قدره الله عليّ يكون . والحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . » انتهى .

قصة طريفة

بمناسبة الحديث على الدف وقصة نزوله على الشيخ سيدي عبد السلام، كما تقدم في كلام الشيخ المكي الذي يحكي وهو شاهد عيان ، لأنه كان يعيش مع الشيخ وهو أحد تلاميذه ، فهو وإن لم يحضر الحادثة نفسها ولكنه تحققها وحكاها عن يقين وعلم تام ، أقول بهذه المناسبة :

اذكر قصة طريفة وقعت في هذا الوقت لها صلة بهذا الموضوع ، وقد أخبرني بها صاحبها نفسه . وذلك أنه كان بعض علماء العصر يجلس بدكانه بسوق المنسوجات بمدينة طرابلس وجلس قربه رجل يتحدث اليه في شئون ، إلى أن وصل الحديث في شأن بندير الشيخ سيدي عبد السلام الاسمر وقصة نزوله عليه . فأنكر الشيخ العالم ذلك على جليسه ، وأغلظ في الكلام ، وقال : هذا شيء لا أصل له ، وهو من الخرافات ، ولا يصح لأن الله ليس عنده معمل أخشاب في السماء حتى يسوي منه بنديراً وينزله على عبد السلام . وهنا وقف عليهم رجل دلال بالسوق يحمل بين يديه مجموعة من الأردية واستمع الى هذا الحديث ثم قال : ما تقول يا سيدي الشيخ ، مشيراً الى الرجل العالم ، فقال له : قلت لهذا الرجل الذي يقول ان البندير نزل على الشيخ عبد

السلام من السماء ، الله ، عنده معمل أخشاب في السماء ، هذه خرافات لا أصل لها . قال الدلال : يا سيدي الشيخ ، وهل كان لله في السماء مطعم ؟ فسكت الشيخ برهة ، ثم قال : ما معنى هذا الكلام الذي تقول ؟ قال له الدلال : لا شيء ؛ إلا أنه اذا كان لله مطعم في السماء نزلت منه مائدة سيدنا عيسى فلا مانع أن يكون له معمل أخشاب ينزل منه بندير على عبد السلام . فانتبه الشيخ وتراجع ، وصار يكرر قوله ، غلبتني يا بني ، غلبتني يا بني ...

وهكذا ظهرت الحكمة على يد هذا الرجل البسيط الدلال في السوق، والحكمة ضالة المؤمن ، ويوجد في النهر ما لا يوجد في البحر . وعلى العموم فمن نوّر الله بصيرته وملأ قلبه بالإيمان الكامل والصدق واليقين والعلم النافع والمعرفة التامة فإنه لا يستبعِدُ في قدرة الله شيئاً ، ولله خرق العوائد ، وما سيأتي إن شاء الله في الكلام على الكرامات وخوارق العادات يفتح المجال أمام العقول المتحجرة التي لا تستسيغ قبول مثل هذه الأخبار . أما العقول النيرة والقلوب العامرة فإنها تصدق أمثال ذلك وتراه أمراً هيناً ، وليس بمستبعد في قدرة الله تعالى .

الفصل الثاني : في رحلاته وتنقلاته وزياراته لمختلف البلدان .

قال صاحب مختصر البرموني ، نقلاً عن الأصل ما نصه : « لما فرغ ، رضي الله عنه ، من خدمة الشيخ الدوكالي ومن الطواف على الأولياء كما تقدم ، زار والدته عيادة بيوزليتن ، وهي مكفوفة البصر بصيرة القلب ، طرأ عليها في العام الذي قدم عليها الشيخ . فمكث معها مدة يعبد الله خامل الذكر لم يفارقها إلى أن توفيت . وبعد ذلك

توجه لزيارة الأولياء الصالحين إلى أن زار كل من بالأقاليم ، ثم جاء لجبل زغوان وأقام فيه مدة يتعبد على ما جرت به العادة عند الأولياء . يقال ، والله أعلم ، إن كل الأولياء عبدوا الله فيه ولو ساعة أو أقل، وله فيه مقام معلوم باقٍ فيه إلى الآن ، وإليه يشير في مقطعاته :

أنا نرقى جبل زغوان مرقب ومشرف وعالي

الخ ... »

ثم قال : « وبعد ذلك رجع ليوزليتن ؛ فلما حل بها وظهرت عنايته فيها حسده أهلها ورموه بالسحر . وما زالوا به إلى أن نفوه منها سبع مرات ينتقل ثم يرجع . ولم يستقر أمره فيها إلا بعد نفيه منها ومن غيرها ورجوعه الى تاورغاء ومصراتة الخ ... » .

الشيخ في ساحل آل حامد .

ثم قال صاحب مختصر البرموني : لما خرج رضي الله عنه من يوزليتن انتقل إلى الساحل ومكث به مدة وصحبه جماعة من فضلاء أهل ماجر ، وظهرت له هناك كرامات كثيرة .

ثم تسلطت عليه قبيلة الأحامد وكانوا في غاية من العز والمكانة . يذكر أن جدهم المنتسبين اليه هو حامد عمورية والعريمة في عرف هـذا الزمان هو ابن الزنا . وكان همام الشيخ عليهم ومبارك مفتيهم ، وكان الساحل لأهل ماجر ، فلما كثر الظلم على أهل ماجر مـن بغاة العرب التجأوا إلى الأحامد وأسكنوهم معهم في الساحل ليحموهم مـن اولئك البغاة ومن الجراية التي يأخذونها منهم ظلماً . فلما استوطن الأحامـد

معهم بالساحل وتمكنوا تعصبوا على أهـل ماجر حتى اخرجوهم منه ، وصار أهل ماجر رعية للأحامد . ولا زالوا في ازدياد التعصب والحمية الجاهلية على أهل ماجر وغيرهم ، وبغوا وملكوا أكثر عقارات الساحل ظلماً وأهل ماجر في اسوإ حال معهم . فلما عتوا العتو الكبير والظلم الكثير سلط الله عليهم مولانا عبد السلام فسكن معهم ليكون هلاكهم على يده ، حسبما جرت به عادة الله ، قال جل من قائل : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ... الآية) ، وقال : (إن الله لا يغير ما بقوم ... الآية) . والسبب في تسليطه عليهم هو أنهم تسلطوا عليه بالضرب والشتم وغير ذلك . وكان السبب في بغضهم له مع سبب هلاكهم هو الفقيــه مبارك وابن عمــه سالم المباركي كانا يرميانه بالسحر وشبه ذلك حتى كرهوه مع جهلهم . وما زال به الأحامـد حتى طردوه من قريتهم . وكلما تكرر عليه الظلم منهم لم يدع عليهـم بشيء ، حتى أذن الله له في الدعاء عليهم .

حكي عنه رحمه الله قال : أذِن الله لي في الدعاء عليهم فقيل لي : يا عبد السلام ادع على الأحامــد . فقلت : ادعو لهم بالتوبة والموت على الخاتمة . فقيل لي ثانياً : ادع عليهم . فقلت كذلك . فقيل ثالثاً : ادع عليهم بالشتات إلى أن يتفرقوا على ثلاث فرق ، ثم بهلاكهم وخلاء بلادهم منهم إلاّ من تبعك ووثــق بطريقتك فلا تدع عليهم . فأطلق الله لسان الشيخ عليهم بالدعاء ، نثراً ونظماً في كثير من مقطعاته ، كقوله :

يا الله يا واحــد — يا محيي العبد بعد المات
شتى وطن الأحامـد — حتى يبقى على ثلاث شظيات

الخ ......

قلت : ثم استشكل الشيخ مخلوف صاحب مختصر البرموني هذا الكلام الذي يفيد صدور الدعاء من الشيخ عبد السلام على الأحامد ، مع أنه من كبار الأولياء العارفين ؛ والأحامد من المسلمين مهما كانت مواقفهم معه ، وأجاب على هذا الإشكال بما يزيله ويزيح العراقيل أمام الواقف عليه ؛ فقال رحمه الله تعالى : « فإن قيل : قد قام الدليل على عدم الدعاء على الناس بالشر ، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (القاتل بدعوته كالقاتل بسيفيه) ، فما تقول في دعاء الشيخ على آل حامد وغيرهم ، مع ما تذكر عنه من اتباعه للسنة واخذه للأحوط والذب عن الدين قلت : دعاؤه لم يصدر منه تعمداً ، بل بوجه شرعي وإذن إلهي ، لأنهم سعوا في ظلمه وقتله ولم يمكنهم الله منه ، وقد ظفروا بابنه عبد الدائم وقتلوه على رؤوس الأشهاد ومع ذلك لم يدع عليهم الا بعد الإذن من الله ؛ اذ يباح قتالهم بالسيف فما بال الدعاء ، والدعاء يصدر من الكامن وغيره ؟ فقد حكى العلامة الشيخ الرهوني في حاشيته على شرح العلامة الشيخ عبد الباقي الزرقاني ، اثناء باب القضاء : ان حجة الإسلام الإمام الغزالي دعا على إقليم الأندلس ، مع كثرة ما فيه من العلم والخير . انظر الحكاية فيه ان شئت . وقال بن ناجي في « معالم الإيمان » ، عند ترجمة ابي الفضل يوسف بن نصر ، قال في المدونة : « ولا بأس بالدعاء على الظالم » . انتهى . ثم قال : « وفي فتح العليم ، نقلاً عن المعيار : سمعت بعض الصالحين يقول : لا يسمى الولي ولياً يعني كاملاً حتى يقتل الله بسببه عدد شعر رأسه من الظلمة . ونقل عن سيدي عبد الوهاب الشعراني مثل هذا الكلام » . انتهى .

الفصل الثالث (في اقامة الشيخ بمدينة طرابلس) :

قال صاحب مختصر البرموني ما نصه : « لما خرج من قرية الأحامد جاء لمدينة طرابلس وأقام بمسجد الناقة ، وله فيه خلوة باقية الى الآن ، كان يتعبد فيها . فلما أراد الله إظهاره بها ، ونفع من أراد الله نفعه وضر من اراد الله ضره ، شاع خبره فيها بالعلم والزهد والعبادة وإظهار الكرامات ، إلى ان اجتمع عليه خلق كثير من كل ناحية . وصار يلقنهم ويربيهم أحسن تربية ، واستعمل لهم السماع المعبر عنه بالحضرة ليلتي الجمعة والاثنين . واستمر على ذلك مدة حياته بعد قضاء الفرض . فلما كان ذلك تحيرت منه قلوب الحسدة والمنكرين عليه وتقوّت بهم مادة الاعتراض بالمحن والفتن والأغراض الفاسدة . ولا زالوا على ذلك إلى أن أوقعوا الفتن بين الشيخ وأصحابه الطرابلسيين ، وسبب ذلك رمي الحسدة له بالزندقة . وقالوا : الحذر الحذر من الاجتماع به . حتى تغير اعتقاد الكثير من الفقراء ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . . .

« ولم يقع للشيخ ضجر ولا تأوه من ظلمهم وتعديهم وتشتيتهم لفقرائه وذلك لسعة أخلاقه . ولما رأوا منه ذلك ازداد تغيرهم حيث لم يمكنهم التمكن منه ، كالقاضي ابي محمد وبعض أصحابه ، وشكوه إلى الوالي وقالوا له : ان ها هنا رجلاً من أهل يوزليتن يزعم أنه القطب ويؤم الناس ، فأخرجه لئلا يشوش عليك بلادك ، فتخرج من بينهم على غير اختيار . ولا زالوا على ذلك حتى ألزمه الوالي بالخروج من طرابلس ومن سائر قراها » .

قلت : ويبـــدو واضحاً من العبارات السابقة أن القاضي أبا محمد وشرذمته الذين حسدوا الشيخ وتعصبوا عليه لم يحاولوا أن يناظروه أو يناقشوه ، ولا أن يحضروا معه ويتفاهموا في شأن ما جاء به وما دعا الناس اليه ؛ وذلك يعطينا فكرة واضحة على أنهم يعلمون علم اليقين في قرارة انفسهم أن الشيخ على حق وهدى ، وأن طريقته شرعية وسنية ولا يمكن مهاجمتها من هذه الناحية فلجأوا الى سلاح الضعفاء وحجة المغلوبين ... الى الأساليب السياسية المفضوحة التي يتبعها سماسرة الشعوب وبائعو الأمم لحكامها في كل عصر وفي كل مصر . وتأمل يا أخي القارىء قولتهم الدنيئة للحاكم والوالي التي تعطيك هـــذه الحقيقة الواضحة إذ يقولون : لئلا يشوش عليك بلادك فتخرج من بينهم على غير اختيارك .

ثم قال نقلاً عن صاحب الاصل : « ولا زالوا على ذلك حتى ألزمه الوالي بالخروج من طرابلس ومن سائر قراها . وكنت معه يوم خروجه وقد أخذه حال عظيم وهو يقول :

اذا ظلم الامـير وكاتباه ... وعم الحسد في كل البلاد
وقاضي الحكم تاه في هواه ... وأظهر بالفجور وبالعناد
فويل ثم ويل ثم ويل ... لكل فقير من قاضي البلاد
أقول أقول يا وحشتاه ... فلا يخلو الفقير من النكاد
من البلقاء يا أخي خرجنا ... وكل مقيم يرحل باعتياد

انتهى ... » .

الفصل الرابع : (في اقامته بجبل غريان) .

قال نفس المصدر السابق : « لما خرج رحمه الله من طرابلس وقراها فر مقبلاً إلى جبل غريان ومكث به مدة بكاف هناك يسمى بتكيره ، وقد وقع له هناك من الظلم واساءة الأدب مـا لم يقع له في محل آخر عدا أولاد سيدي ساعد وأولاد بوسلامة ، فإنهم عظموه واعترفوا بفضله وجلالته وشرفه .. » .

الشيخ بقلعة سوف الجين :

« لما خرج رضي الله عنه من جبل غريان جاء الى جبل عظيم قريب من وادي بني وليد به قلعة يقال لها قلعة سوف الجين ، هو وأصحابه ، وسكنوا . بها وقبل أن يأتي إليها لم يكن بها ماء ، فلما حل بها وأصابهم العطش واحتاجوا إليه وإلى الطهور ، جاءوا اليه يريدون الماء . فلما سمع كلامهم على ذلك ذرفت عيناه واصابه حال عظيم ، وتلا آية من كتاب الله وأخذ معواله فضربه في صخرة فنبعت عين تجري بالمـاء وهي الى الآن موجودة مسمّاة بعين سيدي عبد السلام . وله بتلك القلعة رابطة كان يتعبد بهـا فمكث بها سبع سنين دأبه الالتجاء الى الله ورسوله ، وإظهار الاضطرار اليه بالبكاء والتذلل والتوسل إليه بالأنبياء والأولياء نثراً ونظماً وتلاوة القرآن . وكان حسن القراءة تسمع لقراءته وإنشاداته الطيور والوحوش والهوام والجنون ، ويأوون اليـه طائفة بعـد طائفة ويحادثونه ويبشرونه . ولم يكن عنده في ايام مكثه بهـا زاد سوى اربعة صيعان تمراً فزانيـاً ، ومثل ذلك من دقيق الشعير في جراب . فكان ذلك قوتهم ، وهم يخرجون منها القـدر الكافي في كل يوم وهي

تتزايد ولم تنفد . وله بقرة حمراء وعجلة منها للحليب . ويشير للعجلة ان تشرّق لترعى الربيع وللبقرة ان تغرّب لذلك أيضاً ، لا يجتمعان إلا إذا جن الليل بين يدي الشيخ .

وقد ظهرت له بتلك القلعـــة كرامات لا يمكن استقصاؤها . قال سيدي عبد الرحمن الغدشي : صليت ذات يوم الصبح مع الشيخ بالقلعة ، فلما انتهى من قراءة وظائفه وأوراده ، جعل يقول بعد ذلك :

مـا انجلت عنـا الأنكاد حتى فارقنـــا الأضداد

... انتهى » .

الشيخ يترك القلعة الى تاورغاء ومصراتة :

قال نفس المصدر السابق : « لما أكمل الشيخ سبع سنين بقلعة سوف الجين وأراد الله رجوعه منها ونفع من أراد نفعه وضر من أراد ضره ، سلط الله الحسدة على الوالي ، كما قيل :

واذا اراد الله نشر فضيـــلة طويت اتاح لهـــا لسان حسود
لولا اشتعال النار من جزل الغضى ما كان يعرف حسن عرف العود

فجعلوا يكلمون الوالي على أن يوجه له من يؤذيـه ويسيء اليه ، ويقولون عنده بما يكرهه . وما زالوا به حتى جهز له جيشاً كبـــيراً وقصده بالقلعة يريدون إذايته ، وكبـير الجيش الوالي ومعه القاضي ابو محمد الذي هو من فئة الأضداد وجماعة من اصحابه . وجدوا في السير فلما وصلوا وادياً هناك يقال له (سوسو) وباتوا به ، جاء الشيخ الى الوالي فلم يشعر به حتى دخل خيمته وسط الليل فملأ الله قلبه رعباً

وذلاً وقال له : انت حمار . ثم أخذه من أذنه وأخرجه من الخيمة ، وجعل على ظهره بردعة حمار وركب على ظهره وجعل يطوف بالجيش راكباً عليه ، ينخسه ويسوقه كالحمـار ، الى ان أصبح الصباح فغاب الشيخ عنهم وترك البردعة على ظهره ، فنزعهـا وأخبر بذلك القاضي . فقال له : هـذه شعبذة وضعها لك عبـد السلام وأنت ظننت أنهـا كرامة ، والله ما هي كرامة .

« ثم رحل الجيش بإذن الوالي والقاضي وتوجهوا للقلعة ، فعارضهم من طير الخطاف ما ملاء الأفق ، حتى أنهم لم يستطيعوا رؤية موضع يذهبون إليه : فإذا التفت أحدهم لناحية الجيش أبصره ولم ير شيئاً من ذلك الخطاف ، وإن التفت للناحية التي بها الشيخ لم ير شيئاً لكثرة ذلك الخطاف في الأفق . فتحير الوالي مما رأى وقال للقاضي : اخبرني على قصة هذا الطير وكثرته في ناحية دون ناحية . فقال : نعوذ بالله مما رأيت ، فإن ذلك شعبذة لا كرامة . وأمر الجيش بالقدوم إلى الشيخ . فبينما هو يحرضهم على ذلك ظهر غيم شديد وسواد هائل يرمي دخانـاً حاراً حتى غشيهم . فلما رأوا ذلك وأيقنوا بالهلاك ، وعلموا أن ذلك من بركة الشيخ ندهوه بعد الاستغاثة والتضرع إلى الله ، فأزال عنهم ذلك الغيم ورجع الوالي والجيش الى المدينة .

« ثم بعث الوالي للشيخ يأمره بالمجيء إلى البلاد ويختار منها ما يوافقه للسكنى . فجاء هو واصحابه الذين معه ، فلما قرب من تاورغاء جاءته طيور خضر على قدر العصافير من الجوف ، وجعلت تكرر التوارد عليه حتى تعجب من معه من ذلك . ثم سئل عنها بعدما دخل البلد فقال لهم : تلك الاطيار التي كانت تتوارد أرواح الأولياء يتبركون بقدومنا الى البلد . ودخل الشيخ تاورغاء يريد المكث بها لأن اهلها يحبونـه ويعظمونه ، وقد تلقوه بالإجلال والإكرام ، وأقام بها في ارغد عيش

وصحبه بها أناس كثيرون . وكنت أسمعه غير مرة يقول :

أطلب من الله الرحمن ان لا يطفأ من تاورغاء دخان .

الى آخر ما قال . فلما أراد ان يبني بها داراً نودي في سره : يا عبد السلام ، انتقل من تاورغاء واسكن غيرها ، فإن لك شأناً عظيماً في الانتقال منها . فارتحل منها ودخل مصراتة يريد سكناها ، ففرح أهلها به وأكرموه . وأقام بها مدة بدار سيدي علي بودبوس ، بموضع يسمى بيدر ؛ وتبعه فيها خلق كثير أزيد من ثمانمائة ، وأخذ موضعاً ليبنيه ويستقر فيه . وعندما تسبب في التأسيس سمع قائلاً يقول : يا عبد السلام ، ارفع يدك عما أنت تصنع من التأسيس بمصراتة ، وانتقل منها عاجلاً واسكن غيرها . فإن الله يأمرك بالخروج منها في هذه الساعة لئلا يقع قتال بين ذريتك وذرية أولاد الترك في آخر الزمان . فخرج من مصراتة واتى ليوزليطن » .

انتهى ...

الشيخ في يوزليتن بين البراهمة وأولاد غيث :

قال صاحب مختصر البرموني ، نقلاً عن الأصل كعادته ، ونحن بدورنا نعتمد عليه كما ترى ، إذ هو أحسن مصدر في هذا الشأن ما نصه :

« لما أتى ليوزليتين وأقام بها ، وهي قرية أبناء جنسه الفواتير ، وتسبب في بناء زاوية بها بعد رضائهم عليه وفرحهم به ، ناداه هاتف من هواتف الحق جل جلاله : يا عبد السلام ، انتقل من أرض الفواتير واترك البناء والتأسيس بها ، لأنهم أهل بلاء وبركتهم كثيرة وأنت كذلك ،

إما تضرهم أو يضروك ، إذ لا ينزل البـــلاء على البلاء ، لأن صاحب البلاء الأكثر يضر بصاحب البلاء الأقل ، ولا يكون نزولك وتوطنك إلا بين ظهر البراهمة وأولاد غيث . فقال : يا رب ، أرحني من أولاد غيث ومن القرب منهم ، لأنهم أناس سوء ، وفيما سلف تسببوا في إذايـــتي وطردوني من بوزليتن المرة بعد المرة ، ففي البعد منهم راحتي . فنودي في سره ثانياً : يا عبد السلام ، لا تنزل بأرض غـــيرهم ، ولا يقف لك أساس ولا زاوية إلا بالقرب منهم ، ولو ظلموك أشد الظـــلم وتعدوا عليك ففي تعدّيهم عليك خـــير لك وزيادة حجة عليهم . فإن أحبوك أحببتهم ، وإن أبغضوك أبغضتهم .

« فارتحل من أرض الفواتير ونزل على قبيلتي البراهمة وأولاد غيث : فأما البراهمة ففرحوا بنزوله وعظموه وأعطـــوه أرضاً أسس فيها الزاوية وغيرها . وأما أولاد غيث فكرهوا نزوله ، ووقـــع له منهم من الظلم وإساءة الأدب ما الله به عليم . ولو علموا مـــا سيقع لهم من الخـــير والرحمة وغير ذلك لفعلوا معه كما يأمرهم به ، لكن حرمهـــم الله من ذلك . ثم نصره الله على أولاد غيث وغـــيرهم وسكن بلاده بوزليتن وثارت به وأسس بها زاوية وكثر فيها ذكر الله وتلاوة القرآن ونفـــع خلائق لا يحصون وقصم به جبابرة كثيرون » . انتهى ...

قلت : قال الشيخ عبد السلام العـــالم ، في كتابه « فتح العليم » ما نصه :

« وكان بناء الشيخ للزاوية سنة إحدى وسبعين وتسعمائة » انتهى ..

قلت : وهذه الزاوية المباركة لا تزال عامرة بطلبـــة القرآن والعلوم الشرعية واللغوية ، وقد كانت دراستي العلمية بها فقضيت فيها نحو العشر سنوات لتلقي العلوم على مختلف انواعها . ثم رجعت اليها بعد حـــين

كمدرس بها مـدة خمس سنوات تقريباً ، ولا زالت مشعل نور وهداية لاسيما بعد أن انضمت الى الجامعة الاسلامية وأصبحت فرعاً منها تحمل اسم « المعهد الأسمري الديني » . وما زال الناس ، والحمد لله ، يعتقدون في هذه الزاوية وصاحبها الخير ويبعثون بأولادهم سنة بعد أخرى اليها . وهي أعظم معهد بطرابلس بل بليبيا على الإطلاق ، وفي كل سنة يتخرج منها عدد من المدرسة القرآنية ويدخلون القسم العلمي ، وعدد من طلبة العلم يخلصون من المرحلة الثانوية بها ويذهبون إلى كليات البيضاء لإتمام دراساتهم . وبالرغم من أن هذه الزاوية في ضاحية ، وبعيدة من المدينة ، وفي بلاد تقل بها الكماليات بل وبعض الضروريات : كالماء الحلو والنور الكهربائي ، ولكن الناس يحبونهـا ويحبون الدراسة بها . ولا شك أن ذلك يرجع لأسرار صاحب المقام ومنشىء الزاوية ، سيدي عبد السلام ، نفعنا الله ببركاته في الدنيا والآخرة .

المبحث الثالث

في المرحلة الثالثة من حياته

وفيها ذكر طريقته ورتبه وعبادته، واوصافه الشخصية، ووفاته

الفصل الاول : في الكلام على طريقته الصوفية .

من المعروف أن مولانا الشيخ عبد السلام الأسمر من كبار العلماء العارفين . وتبين لنا من دراسته على شيخه الدوكالي تلك الكتب الفقهية كخليل والرسالة انه مالكي المذهب ؛ كما يتضح من نصائحه ووصاياه ، كما سيأتي ، أنه من أهل السنة ومن طائفة الأشاعرة المشاهير . أما الطريقة الصوفية التي كان يتبعها فهي الطريقة العروسية المشهورة . وتبركاً بأسماء مشائخها الذين ذكرهم الشيخ ، رضي الله عنه ، ننقلهم إليك بالنص . قال صاحب مختصر البرموني :

« اعلم أن مولانا عبد السلام ذكر في نصيحة المريدين وغيرها أسماء مشائخ طريقته ، نظماً ونثراً ؛ كما ذكرهم تلميذه الشيخ سيدي سالم السنهوري نظماً ونثراً ؛ وذكرهم أيضاً « الأصل » نثراً . وبيان ذلك هو أن سيدي عبد السلام أخذ عن سيدي عبد الواحد بن محمد الدوكالي ،

وهو أخذ عن سيدي فتح الله بن أبي رأس القيرواني ، المفتي بها المدفون في برنو بأرض السودان ؛ وهو عن الشيخ أحمد بن عبد الله الرشيد ، الساحلي مولداً المعروف بأبي تليس ودفن بالقيروان ؛ وهو أخذ عن سيدي أبو راوي الفحل ، واسمه عبد الله بن علي ، القلمي مولداً اللواتي نسباً ، وقبره بسوسة معروف ؛ وهو أخذ عن الغوث الأعظم سيدي أحمد بن عروس وبه اشتهرت الطريقة وسميت عروسية ، لأنه أشهر المشايخ علماً وحالاً ؛ وهو أخذ عن سيدي فتح الله بن يوسف العجمي ؛ توفي بتونس وقبره معروف قريب من الجلاز ؛ وهو أخذ عن سيدي ياقوت العرشي ؛ وهو عن سيدي أبي العباس احمد المرسي ؛ وهو عن الشيخ الكبير الشهير سيدي أبي الحسن الشاذلي ؛ وهو عن الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش ، وهو أجل مشائخه وعلى يده كان فتحه ؛ وهو اخذ عن القطب الشريف سيدي عبد الرحمن المدني العطار ، الشهير بالزيات ، وهو عن القطب الشيخ تُقيّ الدين الفُقيِّر ، لقّب نفسه بتقي الدين الفقير بالتصغير فيهما تواضعاً ، وهو عن القطب فخر الدين ، وهو عن القطب نور الدين أبي الحسن علي ، وهو عن القطب تاج الدين ، وهو عن القطب شمس الدين محمد ، بأرض الترك ، وهو عن القطب زين الدين القزويني ، وهو عن القطب ابراهيم البصري ، وهو عن القطب أبي القاسم أحمد المرواني ، وهو عن القطب سعيد ، وهو عن القطب سعد ، وهو عن القطب أبي محمد فتح السعود ، وهو عن القطب الغزواني ، وهو عن القطب أبي محمد جابر ، وهو عن أول الأقطاب الحسن السبط ، وهو عن والده سيدنا علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، وهو عن سيد الكونين ورسول رب العالمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الخ ...

« ثم استرسل في الكلام وأثبت سلسلتين أخريين للطريقة العروسية : إحداهما شاذلية والأخرى غير شاذلية ؛ وأثنى على الطريقة العروسية

الشاذلية ونقل جملاً من عبارات الشيوخ في الثناء عليها . قال : اعلم ان الطريقة العروسية هي لب الطرق وأقومها ، وأنفذها الى الله عز وجل ؛ فمن سلكها وصل إليه مصحوباً بالسلامة ، محفوفاً بالكرامة . وهي طريق قويم وصراط مستقيم ، جامعة بين الشريعة والحقيقة . وكان سيدي أبو رأس يقول : لا طريقـــة إلا عروسية ، ولا سيرة إلا شامية . . . إلى أن يقول : وأجمع القوم على الطريقـة الشاذلية حتى قال مولانا عبد السلام : من لم يتشدل أحواله تُبدّل ، والعروسية هي الشاذلية الى آخره ... » . انتهى .

الفصل الثاني : الرتب التي تولاها .

قال الشيخ مخلوف في مختصره ما نصه :

« قد علمت أن مولانا عبد السلام بلغ القطبانيـــة العظمى ، أعني الغواثة ، غير أنه بقي علينا بيان الرتب التي حصلت له قبـل ذلك . وبيان ذلك ، على ما في « صغير » سيدي عبد الرحمن المكي ، قال رحمه الله : استنجب الشيخ عشر سنين ، واستنقب خمس سنين ، ثم انتقل الى البدالة ومكث فيها سبع سنين ، ومنها انتقل الى القطبانية ومكث فيها اثني عشر عاماً ، ومنها انتقل الى الوتادة ومكث فيها ست سنين ، ثم الى الغواثة وفيها لبس الثوب الذي بطوقين والبرنس .

« وقد روي عن الشيخ الدوكالي أنه قال : إذا رأيتم الشيخ عبد السلام قد لبس الثوب بطوقين وازداد البرنس في ساعة واحدة فإنه دخـــل طريق القطبانية . فكان كما قال . وقال ايضاً : إذا رأيتم عبد السلام قد لبس الثوب بأربعة أطواق وتعمم بالشاش في ساعة واحـدة فقد دخل

طريق الوتادة . فكان كما قال . وانتقل من القطبانيــــة ودخل طريق الوتادة ومكث فيها ست سنين ، وفيها لبس الثوب الذي بأربعة اطواق والشاش ، وانتقل منها الى الغواثة ومكث فيها أربعين عاماً . وفي ليلة الجمعة من العشر الأوائل من رمضان عام واحد وأربعين وتسعمائة أولاه الله الحكم على كل شيء من ناطق وجامد ... الى آخره » .

قلت : ويبدو الكلام على هذه الرتب والمناصب غريباً لدى كثير من أبناء القرن العشرين ، الذين غلبت عليهم الناحية المادية ، وضعفت عندهم وكادت تعدم الناحية الروحية الدينية المعنوية . وهذه المراتب والمناصب لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا طريقها وعملوا بموجبها . وعلينا نحن ، إذا لم تصل عقولنا القاصرة الى إدراكها ، أن نسلمها ونصدق بها ، لأننا نؤمن بالماديات والروحانيات ، ولا يلزم من عدم معرفتنا لهـــا أنها لا توجد ولا معنى لها . على أن أغلب المسائل والأحكام الدينية الإسلامية مرجعها النواحي الروحية والمعنوية .

هذا ، وقد وجد من النصوص الأصولية والأحاديث الشريفة ما يشهد بوجود هذه الرتب التي ذكروها للأولياء والصالحين . وها أنا أنقل إليك كلام الإمام السيوطي ، وهو أشهر من أن يعرف به ، لتعلم أن مـــا ذكروه له أصل في الشرع ، ولا التفات لمن ينكر مثل هـــذه الرتب ويقول : خرافات لا أصل لها . قال في كتابه الذي سماه « الحاوي في الفتاوي » ما نصه :

« الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال : وهذا عنوان قال بعده : بسم الله الرحمن الرحـيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . الحمد لله الذي فاوت بين خلقه في المراتب ، وجعل في كل قرن سابقين ، بهم يحيي ويميت وينزل الغمام الساكب ، والصلاة

والسلام على سيدنا محمد ، البدر المنير ، وعلى آله وأصحابه الهداة الكواكب ، وبعد ؛ فقد بلغني عن بعض من لا علم عنده إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء من أن منهم إبدالاً ونقباء ونجباء وأوتاداً وأقطاباً ؛ وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك فجمعتها في هذا الجزء لتستفاد ، ولا يعول على إنكار أهل العناد . وسميته (الخبر الدال ، على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال) ، والله الموفق » .

ثم ذكر مجموعة كبرى من الأحاديث والآثار في هذا الموضوع ، والتي تدل على وجود هذه الأسماء والرتب ، ننقل منها بعضها للاختصار ، والبعض بالبعض اكتفى . قال رحمه الله تعالى في سند طويل ، إلى أن وصل إلى قوله : « عن علي : سألت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن الأبدال ، قال : هم ستون رجلاً . فقلت : يا رسول الله حلهم لي . قال : ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين . لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأمتهم . أخرجه الخلال في كرامات الأولياء ».

وقال – أي السيوطي – في موضوع آخر ، عن سيدنا عبد الله بن مسعود ، بعد أن سرد السند الطويل ما نصه : « عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة ، قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله في الخلق أربعون ، قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ، ولله في الخلق سبعة ، قلوبهم على قلب ابراهيم عليه السلام ، ولله في الخلق خمسة ، قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام ، وفي الخلق ثلاثة ، قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله في الخلق واحد ، قلبه على قلب اسرافيل عليه السلام : فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله

مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين ، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة ، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة ، فبهم يحيي ويميت ، ويمطر وينبت ، ويدفع البلاء . قيل لعبد الله ابن مسعود : وكيف بهم يحيي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ، ويدعون على الجبابرة فينقصون ، ويستسقون فيسقون ، ويسألون فتنبت لهم الأرض ، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء » اخرجه ابن عساكر .

وقد أطال في هذا الموضوع ونقل عدداً كبيراً من الأحاديث والآثار . وغرضنا أن نشير إلى أن هذا المعنى الذي تكلم عليه السادة الأولياء ، وقسموه إلى مراتب ، وسمعنا أن مولانا عبد السلام قد تولاها شيئاً فشيئاً ، له أصل في الدين ولا ينكر على أهله ، سواء أمكنك معرفته واستطعت أن تفهمه ام كنت في مستوى لا يؤهلك الى إدراك هذه الأسرار . علماً بأنك أعجز من أن تدرك كل شيء لله في عباده . ولذلك نقتصر على هذين الحديثين ، ومن أراد الاطلاع على الموضوع مبسوطاً فعليه بالكتاب المذكور للإمام السيوطي ، فإن فيه العجب العجاب ، والله الموفق .

الفصل الثالث : في كيفية سلوكه في عبادة ربه .

قال الشيخ مخلوف في مختصر البرموني ما نصه : « كان رضي الله عنه لا يفتر عن قراءة القرآن والذكر والدرس في كل زمان ؛ اذا صلى العشاء الأخيرة يتنفل بمائة ركعة ويختم ورده ، وبعد ذلك يذكر سبعين ألف لا إلـه الا الله ، وسورة الإخلاص سبعين ألفاً ، واسم الجلالة

خمسمائة ، ويختم البردة والمرزوقية وأسماء الله الحسنى كل ليلة . وبعد صلاة الصبح يقرأ وظيفته وأدعيته ووظيفة الشيخ أحمد زروق وأحزاب الشيخ الشاذلي بأجمعها ، ويختم القرآن ودلائل الخيرات ، ويقول : سبحان الله العظيم وبحمده ألف مرة ، وأحزابه الأربعة قبل ان يصير الضحى . وبعد ذلك يقرىء درساً في التوحيد إلى أن يصير الظهر ، وبعد صلاة الظهر يقرىء المختصر والرسالة إلى ان يصلي العصر ، وبعد ذلك يقرىء الحكم إلى صلاة المغرب ، ثم يقرىء النحو والمعقول إلى توسط العشاء . انتهى من صغير سيدي عبد الرحمن المكي » .

قلت : وهذا على سبيل الكرامة وخرق العادة لا يستبعد صدوره عنه ، رضي الله تعالى عنه ، فقد ذكر من ألف في كرامات الأولياء من يختم القرآن العظيم في اليوم الواحد العشرة والعشرين وأزيد .. إلى آخره . قلت : وصدق الشيخ مخلوف في ذلك ، وهذه أحوال لا يدركها إلا من كان من أصحابها ، ولله في خلقه شؤون . ولا يمكن لمقصر فاتر الهمة كأمثالنا ، يدعى إلى الجنة بالسلاسل ، أن يقيس أحواله وأوقاته على أحوال وأوقات هؤلاء السادة ، الذين خصهم الله بفضله ، وأعطاهم من المقامات ما يجعلهم يأتون بالعجب العجاب من المجاهدات والعبادات ، التي يستبعدها كثير من قاصري النظر والجاهلين لأحوال الأولياء والصالحين . نفعنا الله بأسرارهم وعلومهم وكراماتهم ، ووفقنا لفهم أحوالهم ، وجعلنا من المقتدين بهم المحبين لهم ، بجاه نبيه وصفيه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ، عليه الصلاة والسلام .

الفصل الرابع : في ذكر شيء من أحزاب الشيخ .

ذكر الشيخ مخلوف أن للشيخ ، مولانا عبد السلام ، أربعة أحزاب ، أوصى بحفظها وتلاوتها على الدوام لمن قدر على ذلك من المريدين . ثم ذكر هذه الأحزاب كلها ، وقد اشتملت على أذكار وتوسلات وأدعية تدل

على أن لهذا الشيخ قدماً راسخة في سائر العلوم والمعارف ؛ وخوف الإطالة نشير إلى بعض كل واحد منها على وجه التبرك .

فالحزب الأول هو الحزب الكبير ، ويقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . اللهم يا جبار يا متكبر يا قهار يا مصور يا ناصر ، أسألك اللهم بعزتك وجلالك وبهائك وكلماتك ، وأسألك باسم العظيم الأعظم وبالاسم الذي أنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ ، حين وصل وغاب في قاب قوسين أو أدنى .. إلى آخره وهو طويل .

والحزب الثاني حزب الطمس ، ويقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا الله ـ خمساً ، يا قدوس ـ خمساً ، يا ودود ـ خمساً ، يا شكور ـ خمساً ، يا قابض يا باسط يا ذا الجلال والإكرام . اللهم انصرنا وارحمنا واعف عنا واهدنا ، ونجنا من القوم الظالمين ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وجد علينا إنك أنت الجواد الكريم ، واجعلنا من التابعين للطريقة والحقيقة ، إلى آخره ..

والحزب الثالث حزب الخوف ، ويقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا الله ـ خمساً ، يا حفيظ يا علي يا عليم يا قوي يا حليم ، يا رب الأرباب يا مسبب الأسباب يا معتق الرقاب ويا شديد العقاب ، ويا عزيز يا وهاب ، ويا منزل الغيث بإذنك من السحاب ، ويا عالم ما في قلب عبدك من الوساوس الواردات المذمومات والمحمودات ، يا حاضراً لي في كل شدة يا مؤنسي في كل غربة ، يا مفرج عني كل كربة ، ويا مخلص وحلتي ويا مباعد غفلتي ، علمني من علمك واحفظني بحفظك ونجني من الضلالة والجهالة واسقني من كؤوس الوصال ، ومن شراب الصوفية في الحضرة العلية بين سادتي وأحبتي .. إلى آخره .

والحزب الرابع حزب الفلاح ، ويقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ، يا الله يا الله يا الله ، يا رب الأرباب ويا من خلق آدم من التراب ، اللهم إني أسألك بعظمتك العظيمة وأنت العظيم الأعظم ، اللهم إني أسألك بحكمتك الحكيمة وأنت الحكيم الأكرم ، اللهم أنت الإله وأنا عبدك الفقير ، وأنت الرحيم الأرحم ، اللهم إني بأمرك نتصرف ونخفي ونظهر ولا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنت الكريم الأعلى .. إلى آخره .

الفصل الخامس : صفاته الشخصية وملابسه وسبب تلقيبه بالأسمر .

قال في مختصر البرموني ، نقلاً عن صاحب الأصل ما نصه : « كان رحمه الله متوسط القد في الغلظ ، ربعة إلى الطول ، جميل الصورة آدم اللون ، لا تمل من النظر إليه ، أسود العينين والحواجب والهدوب ، وجهه كأنه يقطر منه الدهن ، في عينه وسع وبهاء ، خفيف شعر العارضين فصيح اللسان عذب الكلام . يلبس فوق مرقعته الثياب البيض ويتعمم بعمامة بيضاء أو خضراء ، ثم يتنقب بها ويرخي عذبتها حتى لا يرى منه في غالب أحواله إلا عيناه ، ولا ينزع ذلك النقاب إلا إذا اختلى مع أصحابه وباسطهم ، فإذا رأى عامياً رد النقاب كما كان وكف عن المباسطة . ويقول الفقير الرباني : كالعروس البكر لا يطلع عليها إلا محارمها . هكذا كان يفعل إلى أن توفاه الله . وكان يتختم بخنصر يده اليسرى وذلك الخاتم أقل من درهم ، وكان له معوال ينقله في يده وأصله من شجرة الزيتون ، وكان ذلك المعوال مربعاً على أربعة أوجه ، مرسوماً في الوجه الأول : بسم الله الكافي ، وفي الثاني : الغني الفتاح ، وفي الثالث : الرحمن الباقي ، وفي الرابع : الرحيم الرزاق . وكان يلبس النعل الطرابلسي والمسد

الكامل الساتر لكعبيه والمداسة القيروانية ، وتارة يلبس الخف والجورب من النعل الأصفر وذلك على اختلاف أحواله . وكان ينهانا عن لباس النعل الاسود وكل السواد ، مدة حياته . وسبب تلقيبه بالأسمر قالت والدته رحمها الله : لما تزايد لي عبد السلام وبلغ أربعين يوماً أمرت في عالم النور ان نلقبه بالأسمر لمبيته الليالي سمراً في طاعة الله . ويؤيد إثبات هذا اللقب ما ذكره الشيخ في كتابه المسمى « بكتاب العظمة » في التحدث بالنعمة » من قوله : سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سمراً في طاعة الله سبحانه وتعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » انتهى .

وقال الشيخ عبد السلام العالم ، في « فتح العليم » ، بعد أن ذكر أوصافه الشخصية السابقة ما نصه : « اعلم ، رحمنا الله وإياه ، أن هذا الشيخ رضي الله عنه كان لا يخالف الشرع في شيء أصلاً ، بل كان واقفاً مع آداب الشريعة في جميع أموره ، وشاهدُ هذا في كثير من مقطماته وفيما وجد من وصاياه ، وهي الوصية الصغرى . وهو في هذه المحافظة على ظاهر الآداب مخالف لبعض من ضاهاه من الأئمة الكبار التصرف ، فإنهم ربما خالفوا في شيء مما لا يستحسنه الطبع ولا يحرمه عند ظهور عاقبته الشرع ، أو يتجاوزون إلى حد التخريب ، وهو كثير وقد تقدم شيء منه في كلام اليافعي رضي الله عنه . ومن أمثلة ذلك ما ذكره الجزائري في مناقب سيدي أحمد بن عروس من أخذه مفاتيح جامع الزيتونة يوم الجمعة ، حتى أيس من صلاة جمعة ذلك اليوم ، واغتاظ عليه كثير من الناس . ثم قدر أن سقط سقف الجامع كله وبنفس سقوطه بعث الشيخ للبواب المفاتيح قبل أن يعلموا بسقوط السقف ، فعلموا أنه إنما فعل ذلك لما اطلع عليه من ذلك .. إلى غير ذلك مما هو كثير له ، رضي الله عنه ، ولغيره » انتهى .

قلت : وبهذه المناسبة أذكر قصة قصيرة مصداقاً لما حكاه الشيخ عن

هذه القصة هي أنه يوجد بمدينة طرابلس أحــد سيدي بن عروس ، ويدعى بسيدي البلبالي ؛ وانا لم اجتمع به وإنما رأيته ونظرت إليه من بعيد لعدم معرفتي به . هذا السيد ينقل عنه كرامات كثيرة ، ولكن الذي يناسب موضوعنا هذا هو أنه - كما شاع على ألسنة عدد كبير من أهل مدينة طرابلس - كان الناس يجتمعون في مسجد كبير يعرف بجامع شائب العين بسوق الترك بالمدينة القديمة ، ولا أدري أكان تجمعهم لصلاة جمعة أو غيرها . وعلى حين فجأة جاءهم الشيخ البلبالي على غير حالة طبيعية ويقول بصوت مرتفع : أخرجوا أخرجوا من الجامع بسرعة ! . لا يبقى به أحد . بسرعة بسرعة ! فخرج الناس ورجع من جاء منهم ليدخل لأنهم يعتقدون فيه الصلاح . وما إن خرجت الجماهير وغادروا الجامع حتى جاءت طائرة العدو وحلقت فوق المدينة وضربت بقنابلها فسقطت إحداها على ذلك الجامع . فلو بقي الناس لأهلكتهم جميعاً ، وكان ذلك في الحرب العالمية الثانية بين دول المحور والحلفاء ، فعد الناس ذلك كرامة له من بين كراماته الكثيرة . والعاقل لا يستبعد على الله ، وفي حق عباده الصالحين ، أن يكرمهم بمثل هذه المكارم ، وإن كانت في ظاهرها تكتسي بعض الغرائب كقفل الجامع أو أمر الناس بالخروج منه . ولله في خلقه شؤون .

ثم قال الشيخ عبد السلام العالم : « وأما هذا الشيخ الذي هو سيدي عبد السلام ، رضي الله عنه ، فلم يبلغنا عنه شيء مما يستقبحه الطبع أو ينكره في الظاهر الشرع ، إلا الطار المعروف بالبندير ؛ فإن الشيخ استعمله وأظهره لكن بشروط : من كونه في محله مع أهله في أوقات معروفة على صفة معروفة ، مع اعترافه بأنه ليس من مطلوبات الشرع ، إلى غير ذلك من الشروط التي لا يستراب مع توفرها أنه محل الخلاف المعلوم في السماع ، وأنه محل ترخص من رخص فيه من القوم . وكان على ذلك أصحابه في حياته وبعد مماته . ولا شك أن للشيخ فيه مقصداً حسناً أثابه الله ورسوله

وأهل البصائر من أمته يعرفونه ، وقد تقدم ما في مناقبه من أنـه كان إذا ضربه سمع التسبيح مـن أنامله ، وهو كثير في مقطعاته ، من ذلك قوله :

اش تنكر في الطار كل شيء يوحد الله

.. » انتهى .

وقال الشيخ سالم السنهوري في كتابه « النور النائر » ما نصه : « كان رحمه الله من أجل المشائخ وله شأن عظيم في علم الحقيقة والطريقة ، وكان رضي الله عنه يقول : لا يكمل الفقير إلا بالعلم والورع والزهد والصبر والصمت ويكون محبـاً لجميع الناس مشفقاً عليهم ساتراً لعوراتهم .. فإذا ادعى الكمال ، وهو على خلاف ما ذكرناه ، فهو كاذب . وكان رضي الله عنه يأتيه الناس من أقطار الأرض وتخرج بصحبته جملة من المشائخ لا يحصون ، وقد أخذنا عنه التلقين وخدمناه وانتسبنا به ؛ جزاه الله عنـا خيراً .. إلى آخره » .

الفصل السادس : وفاته وانتقاله الى الرفيق الاعلى .

قال الشيخ مخلوف في مختصره ، نقلاً عن صاحب الأصل مـا نصه : « جمعنا الشيخ في خلوته ثم نظر الينا فدمعت عيناه وقال : مرحباً بكم يا نعم الأصحاب والأحباب والأولاد ؛ إن الرحيـل قد قرب من دار الدنيا إلى دار الآخرة . وأخذ في الأنين ويقول : إن ببطني قولنجاً عرض بي ، وأظنه السبب لحضور أجلي . فلما سمعنا منه ذلك اشتد بنـا الهم والغم والحزن . ثم استراح وقعد متربعاً ساعة وقال : ائتوني بسعيدة مسرجـة واحملوني عليها إلى بـلاد جنسي الفواتير لنمرض عندهم ونقبر بمقابرهم ،

وأبعدوني عن أولاد غيث ، ولا تدفنوني ببلادهم لكي نخلو منهم ، فإذا قبرت بإزائهم صار لهم عليّ حق الجوار . فبكى سيدي عبد الرحمن وسيدي عمران وبقية أولاده . ثم قال له سيدي عمران : إنك جعلت الزاوية هنا ، وأمرت بدفنك بعيداً عنها ؛ فإذا جاء الزائرون صعب علينا الإتيان إليهم بالطعام . وما زال معه حتى أمر بعدم نقله وبالدفن في الزاوية . وقرب أولاده ، ثم قال :

« إخواني ؛ أوصيكم بتقوى الله العظيم وبالإحسان للحاضر والغائب ، وأعطوا لكل ذي حق حقه ، وارحموا الفقراء والمساكين ، واجبروا خاطر المجذوبين . وإذا مت يغسلني سالم بن طاهر ، والذي يصب عليّ الماء عمر بن جحا ، ويكون إمامكم في الصلاة عليّ سالم بن طاهر . فلما سمعنا ذلك منه بكينا بكاء شديداً وقلنا : يا قدوتنا ويا وسيلتنا إلى ربنا ، إذا فارقتنا فمن يكون لنا بعدك يكشف كربتنا ويرينا ما يصلح بنا في أمور ديننا ودنيانا ؟ فقال : تركت لكم عمر بن حجا فهو الخليفة فيكم بعدي ، وسيكون له مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه . فقال له بعضنا : حتى أولاد صلبك من تحت خلافته ؟ قال : نعم ، إلا عمران ، فإني قدمته على إخوته وعلى الزاوية . ثم جمع أولاده بين يديه ووضع أيديهم فوق أيدي بعضهم ، وجعل يد عمران فوق الجميع ، ثم جعل يد سيدي عمر بن جحا فوق يد سيدي عمران ، وقال : يا عمر ، أنت الأمير وعمران الوزير . فكره ذلك سيدي عمران وسلّ يده . فقال له الشيخ : إن لم تردها ياعمران لا تنال مني شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة . ثم خلا بسيدي عمر وأوصاه بأشياء كثيرة واختصه بما خصه الله من البركات .

« ثم قعد متربعاً وطلب الماء فجئنا به فشرب ثم توضأ وضوء الصلاة حتى ظننا أنه برأ ، وكانت تلك راحة الموت . وقد أوصى بأشياء كثيرة

منها حفظ أحزابه وأحزاب الشاذلي والبردة وغير ذلك ، ثم اسند ظهره إلى الحائط وجعل يقول :

شوری دعـــاني يا مـــن يوادعني
مريض وفاني يا مـــن يسامحني

وذكر المقطعة بكمالها وهو يشير فيها إلى موته وفراقه لأصحابه . ثم قال : ثم بعد ذكره لهذه المقطعة اضطجع على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة وجعـــل يقول : أشهد أن لا آله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .. يكرر ذلك إلى أن خرجت روحه . وكانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة العصر في العشر الأواخر من شهر رمضان ، سنة إحدى وثمانين وتسعمائة هجرية ..

« وبات مغسلاً في خلوته ، ودفن بعد صلاة الجمعة – بعد ما غسل أيضاً – بزاويته المعروفـــة بيزليتن . وكان الذي تولى غسله والصلاة عليه سيدي سالم بن طاهر كما أوصى » انتهى « الأصل » .

ثم قال الشيخ مخلوف : « وفي صغير سيدي عبد الرحمن المكي : عاش مائة وعشرين عاماً . وقال سيدي أبو مدين السقفي وسيدي محمد بن جعفر الكندي وجماعة : عاش مائة وعشراً ، وهو الصحيح . وقال سيدي عمران ابنه : عاش أحد عشر ومائة » انتهى ..

وقال الشيخ عبد السلام العالم في « فتح العليم » ما نصه : « وفي مـدة حياته رضي الله عنه روايات ، أعدلها خمس وتسعون سنة ، كذا نقلته عن سيدي أبي راوي ، ولا يقوله إلا بمستند ؛ وأمر يوم موته أن ينادى على رؤوس الأشهاد بما يأتي ذكره في الوصية ، من أن من رآه أو رأى من رآه إلى تسعة وعشرين جداً حرمه الله على النار » .

المبحث الرابع

في الكلام على الولاية والأولياء

بما أن سيدي عبد السلام الأسمر الذي كنا نتحدث عنه وعن حياته وأطوارها ومراحلها الثلاث هو معدود من الأولياء الذين فتح الله عليهم واختصهم بمزايا لا توجد عند غيرهم ، وفضل الله واسع يعطيه من يشاء من عباده ، ناسب ان نتكلم عن الولاية : ما هي ، ومن هو الولي ، وما هي مميزاته وأوصافه ، التي يعرف بها بين سائر الناس . ونظراً لأن صاحب مختصر البرموني نقل في ذلك عدة نقول على فحول من علمــــاء الاسلام فإنني أعتمد عليه وأنقل منه ما يسد حاجتنا في هذا المبحث . ولا نتقيد كما كنا سابقاً بنقل النص والترتيب لطول ما جاء فيه ؛ وعلى العموم فله الفضل ولمن سبقه ونقل منه ، فجزاهم الله عنا خيراً فنقول وبالله التوفيق :

الفصل الأول : في معنى الولاية .

قال رحمه الله تعالى : قال ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين النووية : اعلم أن الولاية غير مكتسبة كالنبوة ، فهي محض فضل من الله ، لا دخل للعبد فيه ، وإلا لنالها إبليس وبلعم ابن باعوراء وأكابر المعتزلة بجدهم واجتهادهم . وفي الرماح ، نقلاً عن عرائس البيان : الولاية اصطفائية محضة



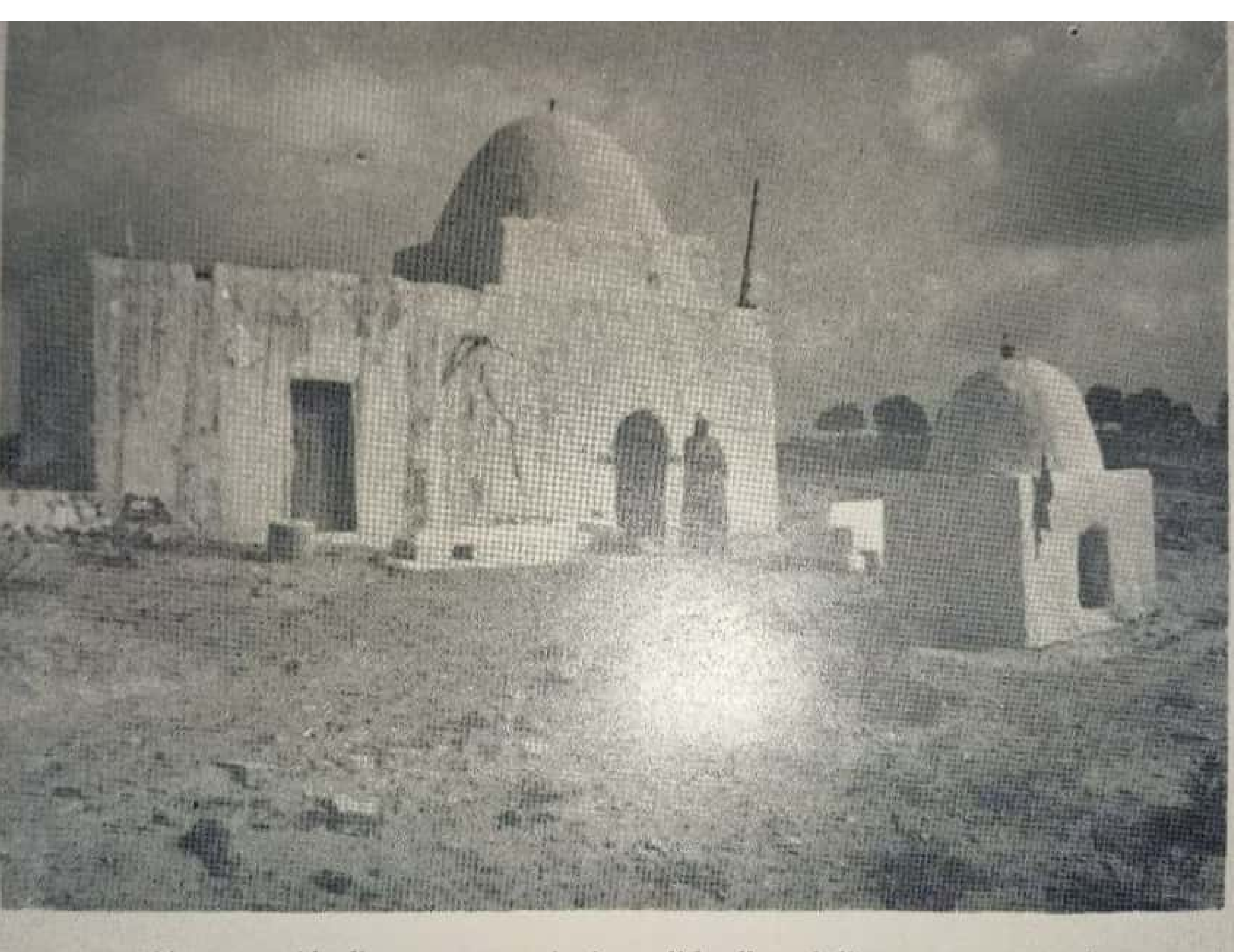
الشجرة التي كان يجلس تحتها سيدي عبـد السلام
بقلعة سوف الجين ـ بورفلة ، بني وليد

المكان الذي كان يصلي فيه سيدي عبد السلام ـ بوسط
قلعة سوف الجين ـ بني وليد

مقابل صفحة ٣٦

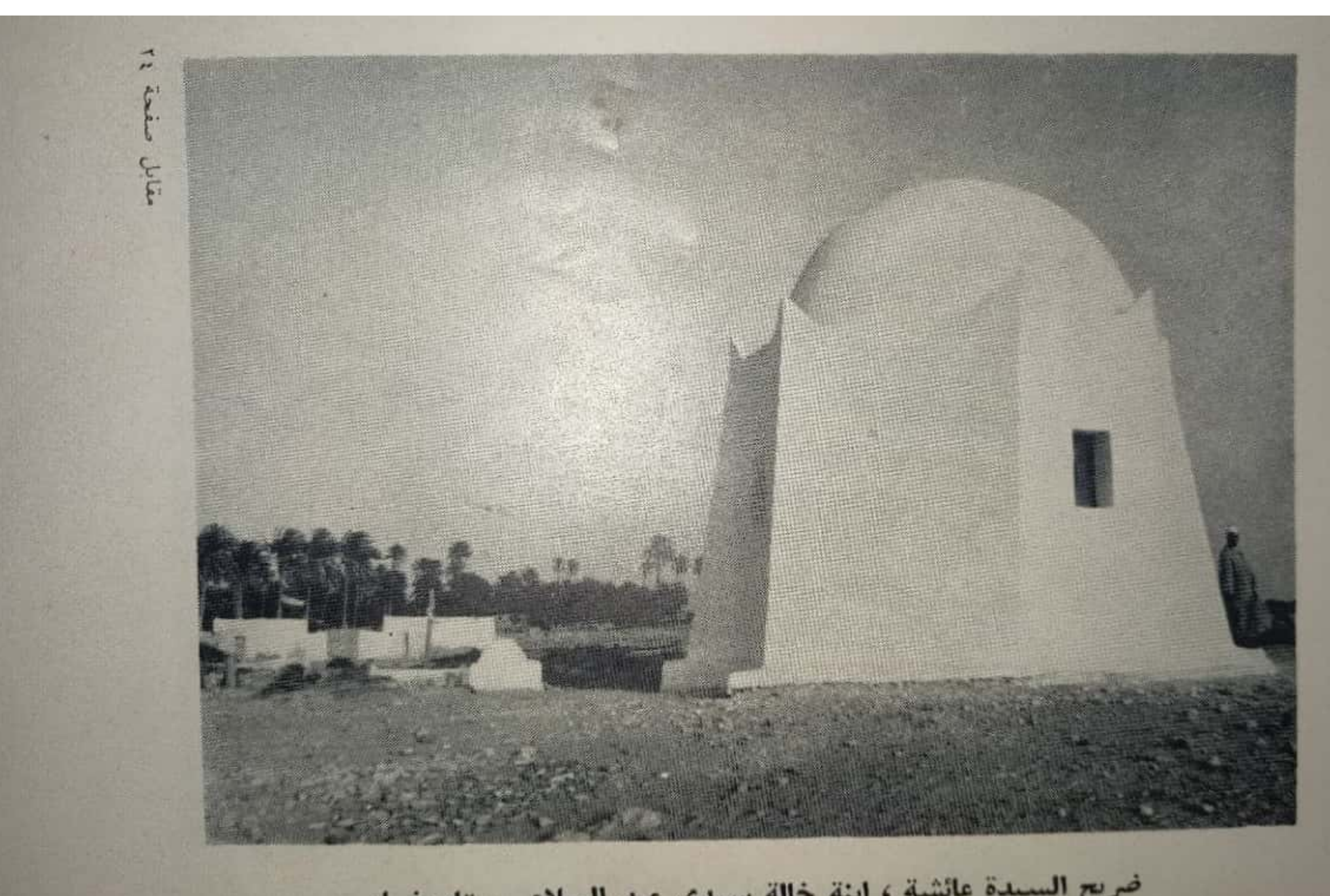

ضريح سيدي محمد المبارك ، احد اولاد سيدي عبد السلام
بقلعـة سوف الجين ـ بنـي وليـد

ضريح سيدي علي ابو دبوس ـ بمصراته



ضريح سيدي عبد الواحد الدوكالي ، شيخ سيدي عبد السلام ـ بمسلاته

مقابل صفحة ٢٤



ضريح السيدة عائشة ، ابنة خالة سيدي عبد السلام ــ بتاورغــاء



ضريح الشيخ سيدي عبد السلام الاسمر من داخله ـ بيزليتن



ضريح سيدي سليم ، والد الشيخ سيدي عبد السلام ـ بيزليتن

مقابل صفحة ٥٦



مكان منزل الشيخ سيدي عبد السلام الذي جدد مؤخرا ،
وبه قبر والدته ـ بيزليتن

ضريح السيدة سليمة عيادة الدرعية ، والدة الشيخ
سيدي عبد السلام ـ بيزليتن